

تاريخ الاستلام: 2023/09/08 تاريخ القبول: 2024/01/09 تاريخ النشر: 2024/06/30



مظاهر اللسانيات الحديثة في الدراسات اللغوية العربية القديمة

محمد داغين سطيف 2
 s.damene@univ-setif2.dz
 جامعة محمد المين داغين سطيف 2

Aspects of modern linguistics in ancient linguistic studies

 DAMENE Siham
s.damene@univ-setif2.dz
University Setif 2 / Algeria

مُلَخِّصُ الْبَحْثِ

يعالج البحث بعض القضايا اللغوية التي أثارها وتوصل إليها علماء اللغة الأوائل حين تصديهم لدراسة اللغة العربية، هذه القضايا التي اعتبرت من صميم اللسانيات الحديثة، على اختلاف توجهاتها وتفرعاتها، في إشارة إلى السبق العربي في اكتشاف ومعالجة هذه القضايا، بعيداً عن قضية التأثير والتأثر، لأن الهدف هو إبراز مدى عناية علمائنا القدامى بدراساتهم للغتهم، ونبوغهم في استشراف ظواهرها، في مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية... وذلك من خلال مقارنة ما توصلوا إليه من نتائج بمثيلاتها في اللسانيات الحديثة، وهو ما يعني ضمناً، أن الدراسات اللغوية العربية، كانت فعلاً سابقة لأوانها.

الكلمات المفتاحية: مظاهر اللسانيات، القضايا اللغوية، اللسانيات الحديثة، السبق العربي، الدراسات اللغوية العربية.

ABSTRACT:

The research treats some of the linguistic issues raised and reached by the early linguists when they dealt with the study of the Arabic language, These issues are considered at the core of modern linguistics, With its different orientations and branches, In reference to the Arab precedence in discovering and addressing these issues, Away from the issue of influence and being affected, Because the goal is to show how much our old scholars cared about their language study, And their ingenuity in anticipating its phenomena, at its phonological, morphological, grammatical and semantic levels, and that is through by comparing their findings with similar results in modern linguistics, Which is implied, Arabic linguistic studies were really premature.

Keywords: Aspects of linguistics, linguistic issues, Modern linguistics, Arab precedence, Arabic Linguistic Studies.

1- مقدمة:

كثيرا ما صادفنا في بحوثنا ذلك الثناء والمدح لبعض الظواهر اللغوية العربية القديمة، التي اكتشف العلم الحديث بأنها سابقة لأوانها، وبأنها عولجت بطريقة تقترب إلى حد بعيد إلى الطريقة التي تدرس بها اللسانيات الحديثة مختلف الظواهر اللغوية، وقد لاقى هذا الرأي تأييدا من بعض الدارسين والمهتمين بالشأن اللغوي، وساقوا لذلك أمثلة تدعم آراءهم، فيما أنكر البعض الآخر أي صلة بين اللسانيات الحديثة والدراسات العربية القديمة.

وإيماننا منا بوجود مظاهر اللسانيات الحديثة في ثنايا الدراسات اللغوية العربية القديمة، جاء هذا البحث ليوقف عند أهم هذه المظاهر، وذلك من خلال الإجابة عن التساؤلات التالية:

- ما هي الجوانب اللغوية في الدراسات اللغوية العربية القديمة، التي تضمنت مظاهر اللسانيات الحديثة؟ وفيما تمثلت هذه المظاهر؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات اتبعنا المنهج الوصفي المقارن، وذلك من خلال وصف طبيعة الدراسات اللغوية العربية القديمة ومقارنتها باللسانيات الحديثة.

وتكمن أهمية البحث وأهدافه في إبراز مدى عناية علمائنا الأوائل باللغة العربية وبدراستها دراسة موضوعية شاملة، وذلك بالاعتماد على وسائل بسيطة كالسماع والتحري الواسع لجمع اللغة من أفواه المتكلمين السليقيين، ومن ثم وضع القواعد بعد الاستقرار التام للغة، وهو ما يعني ضمنا التزامهم بالدقة والموضوعية في دراساتهم تلك.

2- اللسانيات نشأتها وتطورها:

1-2- نشأة اللسانيات:

لعل أكبر حدث غير مسار الدراسات اللغوية كان في مطلع القرن العشرين، حيث ظهرت الدراسات الوصفية، من خلال محاضرات دي سوسير (ت1913)، التي نشرها اثنان من طلابه في العام 1916، تحت عنوان (محاضرات في اللسانيات العامة cours de linguistique générale)، وقد أحدثت هذه المحاضرات ثورة في الدراسات اللغوية، وذاع صيتها في مختلف أنحاء العالم، وانكب الطلاب والباحثون على النهل من مبادئها ومناهجها... حتى أصبحت شغلهم الشاغل.

2-2- تعريف اللسانيات:

إن أبرز ما يميز اللسانيات هو توخيها للمنهج العلمي في الدراسات اللغوية، ولذلك تعرف بأنها "الدراسة العلمية الموضوعية للسان البشري، أي دراسة تلك الظاهرة العامة والمشاركة بين بني البشر"¹.

فالأسلوب العلمي المتبع في اللسانيات لا يفرق بين اللغات ولا يمايز بينها، وإنما يتعرض إليها جميعاً، وذلك عن طريق الملاحظة (l'observation) والتزام الموضوعية (l'objectivité) المطلقة. وتشمل هذه الدراسة الأصوات اللغوية، المفردات الصرفية، التراكيب النحوية، الدلالات والمعاني، وهي تشكل مستويات اللغة الأربعة والإطار العام للغة، والتي لا يمكن الفصل بينها، ولقد ظهرت علوم اختصت بهذه المستويات، وهي على التوالي، علم الأصوات، علم الصرف، علم النحو، علم الدلالة.

2-3- تطور اللسانيات بعد سوسير:

يعتبر القرن العشرون قرن اللسانيات الوصفية والبنائية، التي أرسى مبادئها دي سوسير، والتي تفرعت فيما بعد إلى مدارس لسانية، كالوظيفية والغلوسيمائية والتوزيعية... وكل مدرسة ركزت على جوانب رأت أن سوسير أهملها في دراسته للغة.

2-3-1- الوظيفية:

ظهر الاتجاه الوظيفي مع حلقة براغ، "التي استفادت من آراء سوسير وجعلتها منطلقاً لها، وقد اتخذت تسميتها انطلاقاً من تركيزها على وظيفة الأشكال اللغوية في فهم الظاهرة اللغوية، فيكون وصف اللغات قائماً على أساس ربطها بما تؤديه من وظائف داخل المجتمعات"².

فهدف اللغة عند الوظيفيين هو التواصل، وقد تبلورت مبادئ هذه النظرية مع أندريه مارتينيه André Martinet، ومن أهم روادها، رومان جاكوبسون، نيكولاي تروبتسكوي، فيلام ماثيسوس.

2-3-2- المدرسة الغلوسيمائية:

وتعرف أيضاً بمدرسة كوبنهاغن، نسبة إلى مؤسسها العالم اللساني الدانمركي لويس يلمسليف LOUIS HELMSLEV الذي أقام نظريته على أساس نقدي، فقد "جاءت هذه النظرية لتتخلى عن الدراسات اللغوية المتأثرة بالفلسفة، والأنثروبولوجيا، واللسانيات المقارنة، وتقيم لسانيات علمية مبنية على أسس رياضية ومنطقية وكلية (UNIVERSAL)، تعنى بوصف الظواهر اللغوية، وتحليلها وتفسيرها بطريقة موضوعية، وتتميز هذه النظرية عن باقي النظريات اللسانية الأخرى بدرجة لا مثيل لها من التجريد النظري وبخاصة في مجال التعريف والتنظيم والتصنيف"³، وبهذا فهي تؤكد على استقلال التحليل اللغوي عن المجالات الأخرى غير اللغوية.

2-3-3- المدرسة البنائية الأمريكية:

خلافًا لللسانيات الأوروبية التي انطلقت من الفكر اللغوي القديم، فإن اللسانيات الأمريكية انطلقت من الأنثروبولوجيا "التي اهتمت بتدوين وتصنيف اللغات الهندية الأمريكية المنتشرة في الولايات المتحدة، وذلك خشية انقراضها"⁴، ومع ذلك فهي تلتقي معها (اللسانيات الأوروبية) في النظر إلى اللغة بوصفها بنية، وفي

أن هذه البنية لكي تدرس لا بد أن تحلل إلى مكوناتها، "والحقيقة أن البحث اللغوي في أمريكا لم يكن منبث الصلة تماما عن أوروبا، فالرواد الأوائل لعلم اللغة الأمريكي، مثل فرانز بواز وإدوارد ساير، وليونارد بلومفيلد، كانوا على صلة بصورة أو بأخرى بالتراث الأوربي في دراسة اللغة"⁵ وقد هيا هؤلاء العلماء الثلاثة المسار لللسانيات الأمريكية، التي وصفت بالبنوية، لأنها تهتم ببنية اللغة ودراسها دراسة وصفية، لذلك عرف روادها بالوصفيين، وعلى رأسهم ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield زعيم المدرسة التوزيعية.

• المدرسة التوزيعية:

لقد بنيت المدرسة اللغوية الأمريكية على أسس مغايرة لما كانت عليه أعمال اللغويين الأوربيين التي تجعل من المعنى المعيار الحاسم للتمييز بين الوحدات المختلفة في كافة المستويات اللغوية، فالتوزيعيون وعلى رأسهم بلومفيلد، ذهبوا مذهباً آخر، إذ أنهم ينفون للمعنى أي تدخل، لأنه ظاهرة لا يمكن مشاهدتها مباشرة، ولذا يلجأ التوزيعيون إلى مشاهدة السلوك اللغوي، وما يرافقه من أحوال محسوسة، متأثرين في ذلك بالنظرية التي كانت سائدة آنذاك في الدراسات النفسية، وهي السلوكية⁶. وهذا ما جعل بلومفيلد يعتمد على ثنائية المثير والاستجابة، التي اتخذها منطلقاً لدراسة جملة من القضايا اللغوية، وقد بلغت اللسانيات أوج ازدهارها في هذه المرحلة، خاصة مع ظهور المدرسة التوليدية التحويلية.

• المدرسة التوليدية التحويلية:

لقد أقام تشومسكي هذه النظرية على أساس نقدي، حيث تعرض فيها إلى ثغرات التوزيعية، ليقتراح بديلاً لها يتمثل في نظرية جديدة تتناول البنى التركيبية دون الرجوع إلى لغة ما، كما جاء في كتابه "التركيب النحوية" الذي أصدره سنة 1957⁷، وقد استطاعت هذه النظرية أن تحتل بسرعة مكانة سابقتها في البحوث اللسانية الأمريكية، ذلك أن تشومسكي قد "ألح منذ البدء على القدرة الإبداعية للغة الإنسانية، ورأى أن النظرية التحويلية لا بد أن تعكس قدرة جميع المتكلمين بلغة ما، على التحكم في إنتاج جمل وفهمها دون أن يسمعوها من قبل"⁸، وهذا معنى التوليد عند تشومسكي، وقد ربط هذه العملية بالكفاية اللغوية، التي تعني "مجموع القواعد الكامنة في ذهن الإنسان، والتي تمكنه من بناء الجمل"⁹.

وقد قطعت المدرسة التوليدية أشواطاً ومراحل في تطورها، وتبوأ مكانة لم يسبق للنظريات التي سبقتها أن تبوأها، وما زالت إلى يومنا هذا من أهم المدارس اللسانية على الإطلاق.

3- بعض مظاهر اللسانيات في الدراسات اللغوية العربية القديمة:

1-1- الجانب الصوتي:

لقد درس العرب أصوات لغتهم ضمن دراساتهم التي كانت تهدف إلى الحفاظ على اللغة العربية من اللحن والتغيير، ولعل ما يدعو إلى التوقف عند هذا المستوى، هو ما بلغته هذه الدراسات من الدقة

والتصنيف، الذي أجاز لها أن تصنف ضمن الدراسات المبتكرة والسابقة لزمانها، بل والتي تتقاطع فيها مع الدراسات اللسانية الحديثة، وفيما يلي أهم هذه المظاهر:

3-1-1- تعريف اللغة:

عرف ابن جني اللغة بأنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"¹⁰، يتضمن هذا التعريف الموجز معظم الجوانب التي يتفق عليها اللغويون المحدثون في تعريفهم للغة، فهو يشير إلى الوظيفة التعبيرية للغة وهي التواصل، إضافة إلى صفتها الاجتماعية التي تستمدّها من ارتباطها بالمجتمعات الإنسانية، أما أهم ما في هذا التعريف، فهو الإشارة إلى الوحدة الدنيا المكونة للغة البشرية، وهي الأصوات، وهذا يتفق مع ما ذهب إليه أندريه مارتيني على سبيل التمثيل لا الحصر، حيث يقول: "اللغة أداة تواصل تحلل من خلالها التجربة البشرية وبشكل مختلف، داخل كل جماعة، إلى وحدات تمتلك مضمونا دلاليا، وتعبيرا صوتيا"¹¹، فمن الواضح أن هذا التعريف يتفق مع تعريف ابن جني في عدة نقاط، أهمها: اللغة عبارة عن أصوات، اللغة وسيلة للتواصل بين الناس وتنوع اللغة بتنوع الأقوام.

3-1-2- مصطلح علم الأصوات:

يعود الفضل إلى ابن جني في إطلاقه مصطلح "علم الأصوات" على مجموعة المباحث الصوتية التي تضمنها كتابه "سر صناعة الإعراب" الذي يعد أول كتاب يؤلف في هذا العلم. فابن جني أول من جعل الأصوات علما، وأطلق عليها هذا اللفظ الواضح الصريح، ودل به على دراسة الأصوات، والبحث في مشكلاتها المختلفة¹².

يقول في هذا الصدد "هذا القبيل من هذا العلم – أعني علم الأصوات والحروف- له تعلق ومشاركة للموسيقى لما فيه من صنعة الأصوات والنغم"¹³، وفي هذا تأكيد على أن ابن جني قد أدرك أن علم الأصوات علم قائم بذاته، وأن الأصوات يمكنها أن تدرس درسا مستقلا.

3-1-3- الفونيم:

لعل أهم ما قام به ابن سينا (ت427هـ) في مجال الأصوات، هو دراسة الصوت المجرد الذي يمكن أن يتغير أو يتحقق في صور قريبة من أصوات أخرى حسب السياق الصوتي الذي يرد فيه، وهذا ما يصطلح عليه المحدثون بالفونيم والألوفونات phonème, allophone¹⁴، ويشير إلى هذا بقوله: "وها هنا حروف غير هذه الحروف، تحدث بين حرفين، فيما يجانس كل واحد منهما بشركه في مسببه"¹⁵.

وهذا يعني وجود حروف أخرى إضافة إلى حروف الهجاء المعروفة في اللغة العربية، وهذه الحروف تؤدي وظيفة تمييزية، أي أنها تفرق بين المعاني، ويوضح سيبويه هذه الفكرة في قوله: "أصل حروف العربية تسعة وعشرون حرف: الهمزة والألف والهاء وتكون خمسة وثلاثين حرفا بحروف هن فروع،

وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها ويستحسن في قراءة القرآن والأشعار وهي: النون الخفيفة، والهمزة التي بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألف التفخيم¹⁶، فالحروف الفروع التي أشار إليها سيبويه، هي ما يعرف في الدرس اللغوي الحديث بالألوفون، ويقصد به مجموع البدائل الصوتية للفونيم.

3-1-4- المقطع:

الفونيم هو الوحدة الأساسية للسلسلة الكلامية، ومن ثم للمقاطع المختلفة لأية لغة من اللغات، ودراستها لا يمكن أن تكون إلا من خلال ما تكون عليه من تراكيب، ذلك أن "الأصوات اللغوية لا توجد مستقلة، وأنها لا تحلل على انفراد، إلا بنوع من التجريد، إذ أنها في كل لغة تكون نظاماً مترابطاً، لكن بمعنى ذلك أيضاً أنها لا تستعمل على انفراد، إلا بمركبات من الأصوات اللغوية، فأقل جملة، وأقل كلمة تفترض سلسلة من الحركات النطقية المعقدة، وقد تركبت فيما بينها"¹⁷. فما يميز لغة عن أخرى ليس هو الفونيم، وإنما هو المقطع وما يصاحبه من ظواهر النبر والتنغيم.

ومن العلماء العرب الذين أدركوا المقطع بمفهوم قريب من المفهوم الحديث له، الفراء والجاحظ. ففي كتابه "معاني القرآن"، قال الفراء: "أ، ب، ت، ث، بعينها مقطعة، وإذا لم يأتن متواليات دللن على الكلام المتصل لا المقطع"¹⁸، أما الجاحظ فكان أدق في اعتبار التقطيع أساس الكلام، وذلك في قوله: "ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف"¹⁹، فقد استعمل مصطلح التقطيع بمفهوم التجزئ، الذي يقترب من المفهوم الشائع لمصطلح التقطيع في اللسانيات الحديثة.

3-2- الجانب الصرفي:

لقد أهملت دراسة المباحث الصرفية مقارنة مع غيرها من العلوم العربية، وذلك لكون علم الصرف بقي إلى زمن متأخر متصلاً بعلم النحو، هذا فضلاً عن كون هذه المباحث تتسم بالتجريد والتعقيد بالنظر إلى ما فيها من التعليل، ومع ذلك يمكن الإشارة إلى بعض هذه المظاهر، فيما أشار إليه علماؤنا حين تصدوا إلى دراسة الظواهر الصرفية.

3-2-1- مفهوم الجذر:

يقوم علم الصرف في اللغة العربية على افتراض أصل ثلاثي أو رباعي، تعود إليه جميع المفردات، ولتبرير ذلك قام علماء الصرف بوضع ميزان صرفي، يمكن بواسطته التعرف على أصل الكلمة الموزونة وزوائدها، وهذا ما ذهب إليه الدراسات اللسانية الحديثة، التي بينت أن "مفهوم الجذر هو المفهوم الذي يقوم عليه تكوين المفردات في اللغات السامية، ومنها العربية، نظراً إلى وجود عدد من المفردات التي تشترك في الأصول نفسها، وهو ما لا يمكن تفسيره إلا بوجود جذر واحد تعود إليه جميعاً"²⁰، وهذا

الجزر يتكون من حروف مرتبة خطيا، وهي قابلة للزيادة والنقصان، ومنها تتوالد المفردات وتتكاثر تكاثرا دلاليا.

3-2-2- منهج تقاطع الجذور والأوزان:

هذا المنهج مكمل لسابقه، وهو يعني أن الكلمة في اللغة العربية تأخذ معناها الدقيق من شيئين:

✓ الأول: هو الحروف الأصول المكونة للجزر؛

✓ أما الثاني: فهو وضع هذه الحروف على هيئة مخصوصة، أو على وزن من أوزان اللغة العربية المحصورة في عدد متناه.

وهو ما رآه اللساني الفرنسي جان كانتينو (J.Cantineau)، في نظريته التي تقوم على اعتبار ألفاظ اللغة العربية ناشئة عن تقاطع الأوزان (Schèmes) والجذور (Racines)، ويمثل لذلك بجدول توضع في خطه الأفقي الجذور، وفي خطه العمودي أوزانها، وتنشأ الكلمة عند التقاطع بين الجذور والوزن²¹. فعندما يتقاطع الجزر (ذ- ه- ب) على سبيل المثال بوزن (فاعل) يتكون اسم الفاعل (ذاهب) وهكذا....

3-2-3- الإبدال والإدغام:

الإدغام والإبدال من المباحث الصرفية المعروفة، التي تهدف إلى تيسير النطق وتسهيله.

ومن مظاهر الإبدال في اللغة العربية، إبدال تاء الافتعال طاءً، إذا كانت فاؤها طاءً أو ظاءً أو ضادا أو صادًا، أي إذا كانت الفاء من أصوات الإطباق (الأصوات المفخمة)، نحو اضطلع واطَّلَع واضطرب واصطبر... وإبدالها دالا إذا كانت الفاء زايًا أو دالا أو ذالا، كقولهم ازدجر وادَّعى وادَّكر (اذدكر)...

فالأصل في اطلع، اطلَّع، الطَّاء مفخمة والتاء مرققة، فأبدلت التاء إلى نظيرها المفخم وهو الطاء، لتصبح اطلع، ثم يدغم المتماثلان المتجاوران حسب القاعدة.

والأصل في اذكر، اذتكر، والذال مجهورة والتاء مهموسة، فأبدلت التاء إلى نظيرها المجهور وهو الدال لتصبح اذدكر، ثم تبدل الذال دالا وتدغم فيها.

وقد عرفت هذه الظاهرة حديثا بالتأثر التقدمي، أي فناء الصوت الثاني في الصوت الأول، والنطق بهما صوتا واحدا، كالأول²².

ومنه أيضا -على حد تعبير ابن جني- "قولهم في مُصَدِّقٍ، مُزْدَقٌ وفي مصدر، مُزْدَرٌ، فأبدلوا من الصاد وهي مهموسة حرفا من مخرجها يقرب من الدال، وهو الزاي لتوافقهما في الجهر"²³، ويعقب على ذلك بقوله: "وجميع ما هذه حاله مما قرب فيه الصوت من الصوت جار مجرى الإدغام بما ذكرناه من التقريب"²⁴.

فمن الواضح أن ابن جني في تعريفه للإدغام، قد وافق مفهوم المماثلة في العصر الحديث، وهذا ما يؤكد عبده الراجحي بقوله: "وهكذا يفيض أبو الفتح في بيان أوجه التأثير التي يتعرض لها الصوت في الكلام المتصل، (...) وها أنت رأيت ترديده لعبارة "تقريب الصوت من الصوت"، وهذا ما يعرف في الدرس الحديث بالمماثلة"²⁵، التي تحدث بين الأصوات المتحدة أو المتقاربة في المخارج والصفات.

3-2-4- ضرورة تقديم الصرف على النحو:

لقد درجت المناهج التعليمية على تناول المسائل النحوية قبل المسائل الصرفية، بحجة أن الصرف أصعب من النحو (التدرج من السهل إلى الصعب)، غير أن واقع الحال غير ذلك، حيث أكدت الدراسات الحديثة وجوب التقيد بالترتيب المنطقي لمستويات الدرس اللساني، الصوت ثم الصرف ثم النحو.

وقد نبه ابن جني إلى هذا الأمر من خلال قوله: "من الواجب على من أراد معرفة النحو، أن يبدأ بمعرفة التصريف، لأن معرفة ذات الشيء الثابتة، ينبغي أن يكون أصلاً لمعرفة حاله المتنقلة"²⁶.

3-3- الجانِب النحوي:

لقد أولى علماء اللغة الأوائل اهتماماً بالغاً بالنحو العربي، باعتباره قانون العربية، وقد اقترب منهج دراستهم على حد كبير من المناهج اللسانية الحديثة، حيث أثبتت الكثير من الدراسات، وجود دراسات سابقة لأوانها في النحو العربي، إلى جانب تقاطعه في الكثير من القضايا مع النحو التوليدي التحويلي، وفيما يلي أبرز مظاهر النحو الحديث في النحو العربي القديم:

3-3-1- اعتماد المنهج الوصفي:

لقد انتهج علماء العرب الأوائل منهجاً قائماً على جمع اللغة من أفواه المتكلمين السليقيين، في مساحات جغرافية محددة وفي فترة زمنية محددة، ثم تصنيفها انطلاقاً من ملاحظة الظواهر المتشابهة والمطرده، وأخيراً استنتاج القاعدة.

فمن الواضح أن هذه المراحل تلتقي مع المنهج الوصفي الذي تبنته اللسانيات الحديثة، والذي يقتضي الاستقراء التام في جمع المادة اللغوية قبل استنتاج القواعد.

وقد أشار أنيس فريجة إلى أن المنهج الوصفي ليس من مبتكرات الغرب، كما تشير المصادر الحديثة، "إذ يرى أن ابن جني في نظريته إلى العامل، وابن مضاء القرطبي في كتابه (الرد على النحاة) يعتبران بحق مؤسسي المنهج الوصفي"²⁷.

2-3-3- البنية السطحية والبنية العميقة:

لقد توصل تشومسكي إلى أن لكل جملة بنيتين، بنية سطحية تمثل سلسلة الأصوات المتتابعة التي تمثل الجملة في صورتها النهائية، بعد حدوث عمليات تحويلية مختلفة، وبنية عميقة تمثل التفسير الدلالي للجملة، وهي شكل تجريدي مرتبط بالعمليات الفكرية.

ونجد هذه الفكرة عند الجرجاني الذي "فرق بين النظم والترتيب، والبناء والتعليق، فجعل نظم المعاني في النفس، وهو تماما البنية العميقة عند تشومسكي، أما البناء فهو البنية السطحية الحاصلة بعد الترتيب بواسطة الكلمات، كما أن التعليق هو الجانب الدلالي من هذه الكلمات التي هي في السياق"²⁸، وتتجسد هذه الفكرة أكثر عندما يميز بين ظاهرة التقديم على نية التأخير والتقديم الذي ليس هو على نية التأخير²⁹. وهو ما يعني أن التركيب النهائي للجملة والذي يظهر عبر بنيتها السطحية قد يكون له أكثر من تفسير على مستوى البنية العميقة.

3-3-3- التوليد والتحويل:

يقوم مبدأ التوليد على إنشاء عدد لا متناهي من الجمل انطلاقاً من عدد محدود من القواعد ومن الكلمات، وقد عبر عبد القاهر الجرجاني عن هذه الظاهرة، وأعطى مثالا لذلك بقوله: "فلينظر في الخبر على الوجوه التي تراها في قولك زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق"³⁰، فقد تولدت معاني نحوية كثيرة انطلاقاً من ألفاظ قليلة، وذلك باختلاف موضع الكلمة في الجملة، فجملة (زيد منطلق) تمثل البنية النواة (العميقة)، ثم قام بتحويلها إلى سبعة من البنى السطحية، وجعل لكل بنية معنى خاصاً يميزها عن غيرها، وذلك من خلال الإضافة والتعويض، وتغيير مواقع الكلمات تبعاً لمقتضى الحال، وهو نفس مبدأ التوليد في اللسانيات الحديثة.

3-3-4- الاكتساب اللغوي:

لقد عالج تشومسكي مسألة الاكتساب اللغوي ضمن منهجه العقلي، فهو يربط الاكتساب بالتوليد، الذي يعرف بأنه: "منهج ذهني يجعل ملكة اللغة قدرة فعالة غريزية وفطرية، وهي تخص الإنسان وحده"³¹.

ولم تكن مسألة الاكتساب اللغوي غائبة عن الفكر اللغوي العربي القديم، فقد عالج ابن فارس (ت 395 هـ)، هذه المسألة قائلاً: "تؤخذ اللغة اعتياداً كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات، وتؤخذ تلقناً من ملقّن"³².

فبالإضافة إلى الإشارة إلى طريقة الاكتساب، التي تكون بالاعتیاد، أي بالممارسة، فرق ابن فارس بين الاكتساب (الاعتیاد)، الذي يكون عفويا وفطريا ودون بذل الجهد، وبين التعلم (التلقن) الذي يكون ببذل الجهد وبحضور المعلم (الملقن).

4-3- الجانب الدلالي:

لم يكن الجانب الدلالي غائبا عن دراسات علمائنا القدامى للغة العربية، فقد احتفوا بهذا الجانب موازاة مع احتفائهم بالجانب الشكلي للغة، فالدلالة موجودة ضمنا في المستويات الصوتية والصرفية والنحوية، وقد بلغ الاهتمام بالجانب الدلالي مستويات عالية من الدقة والتطور، حيث تضمن إشارات إلى ظواهر اعتبرت في اللسانيات من صميم الدراسات الحديثة. ومن هذه المظاهر:

4-3-1- الاعتبارية:

من مخرجات لسانيات دي سوسير ما يعرف بالاعتبارية بين الدال والمدلول، والتي تعني عدم وجود علاقة منطقية إلزامية بينهما، حيث كان بالإمكان تسمية التراب حجرا والعكس صحيح، دون أن يشكل ذلك لبسا ولا حرجا.

وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى هذه الظاهرة، في قوله: "وذلك أن نظم الحروف هو توالها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمها ما تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد..."³³.

فالجرجاني يؤكد من خلال هذا القول أن للحروف نظاما وترتبا، لكنه يفتقد للمعنى، وهو ما يعرف باعتبارية العلامة اللغوية، أي عدم وجود ترابط داخلي بين الدال والمدلول.

4-3-2- الدليل اللغوي:

الدليل اللغوي هو "كيان ذهني مكون من الدال وهو الصورة الصوتية، والمدلول، أي المفهوم الذي يبينه الإنسان من تصوره للشيء (مشخصا كان أو مجردا)"³⁴.

إن هذا الكلام يشير إلى الطبيعة العقلية للغة، التي تعني ارتباط الألفاظ بالمعاني التي وضعت لها في الذهن، كمرحلة سابقة للتلفظ، وقد تنبه الجرجاني إلى هذه الظاهرة، يقول: "واعلم أن ما ترى أنه لا بد من ترتيب الألفاظ وتوالها على النظم الخاص، ليس الذي هو طلبته بالفكر، ولكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة، من حيث إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس، وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق..."³⁵، فالمعاني إذن ترتبط بالألفاظ الدالة عليها وتترتب في النفس، قبل أن تظهر في هيئة ألفاظ وتراكيب...

3-4-3- المنهج السياقي:

يعتبر السياق محور اهتمام اللسانيات بصفة عامة، ومن أهم المدارس الحديثة التي اهتمت بالسياق، مدرسة فيرث (firth)، ويعرف السياق بأنه: "النظم اللفظي للكلمة، وموقعها من ذلك النظم"³⁶، ويتحدد موقع الكلمة بعلاقتها بما قبلها وما بعدها من كلمات في سياق معين.

ولا شك أن هذه الظاهرة ليست جديدة على التراث اللغوي العربي، فقد استفاد الجرجاني في الحديث عن السياق مستخدماً مصطلحات مختلفة، أهمها النظم، حيث يقول: "ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها سبب من بعض"³⁷، ويقصد بالتعليق الترابط المعنوي بين الألفاظ، فقد أكد على موافقة اللفظ للمعنى، ومناسبتها للسياق. وهذا ما توصل إليه فيرث، الذي رأى أن المعنى لا ينكشف "إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة"³⁸. فالسياق هو الكفيل بتحديد المعنى الدقيق للكلمة، أما ما تحمله من معنى معجمي، فهو معنى عام ليس إلا.

3-5- الجانب التداولي:

تسعى التداولية إلى أخذ ظروف وملابسات الكلام بعين الاعتبار في تحديدها للمعاني اللغوية، فهي: "دراسة استعمال اللغة في سياق معين"³⁹ أي دراسة الكيفيات المختلفة التي تستعمل بها اللغة، وهذا ما يعرف في التراث العربي بالمقام، حيث أصبحت عملية إدراج المقام ضرورية لفهم الكلام، وهو ما أهمله سوسير، واستدركته التداولية، التي "تختص بتقصي كيفية تفاعل البنى والمكونات اللغوية، مع عوامل السياق، لغرض تفسير اللفظ، ومساعدة السامع على ردم الهوة التي تحصل أحيانا بين المعنى الحرفي للجملة والمعنى الذي قصده السامع"⁴⁰، ذلك أن الجملة الواحدة قد تختلف دلالاتها تبعاً لاستعمالها في مواقف مختلفة.

ومفهوم التداولية هذا لم يكن غريباً على الدرس اللغوي العربي، يقول الجرجاني: "إن الناس إنما يكلم بعضهم بعضاً، ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده"⁴¹، إن المتأمل لهذا القول يدرك أن الجرجاني قد أدرك أن فهم الكلام لا يكون إلا بأخذ ظروف وملابسات الحديث بعين الاعتبار، وخاصة مقصدية المتكلم...

5- خاتمة:

لقد تبين من خلال هذه الدراسة، أن الدراسات اللغوية العربية القديمة، قد ضمت -عن قصد أو عن غير قصد- بعض قضايا اللسانيات الحديثة، بمختلف توجهاتها ومدارسها الأوروبية والأمريكية، وذلك في المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية وحتى التداولية، وما هذه القضايا إلا عينة مما تناولته الدراسات العربية القديمة، بطريقة تنبئ عن النضج المبكر الذي طبع الدرس اللغوي العربي القديم، بغض النظر عن الهدف من دراساتهم هذه.

6- الهوامش والإحالات:

- ¹- مبادئ في اللسانيات، خولة طاب الإبراهيمي، 2006، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط2، ص9.
- ²- ينظر اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، أحمد المتوكل، 1989، منشورات عكاظ، الرباط، د.ط، ص15-16.
- ³- اللسانيات النشأة والتطور، أحمد مومن، 2007، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3، ص159.
- ⁶- المرجع نفسه، ص187.
- ⁵- السلطنة، 2009، المدرسة البنيوية، المنتدى الجامعي للحوار الأكاديمي وأقسامه، <https://www.4algeria.com> تاريخ الدخول: 26 فيفري 2023.
- ⁶- ينظر مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، ص88.
- ⁷- ينظر المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة، د.ت، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، د.ط، ص133.
- ⁸- مبادئ اللسانيات، أحمد محمد قدور، 2008، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3، ص258.
- ⁹- المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة، ص151.
- ¹⁰- الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني، د.ت، تح محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، ج1، ص33.
- ¹¹- مبادئ ألسنية عامة، أندريه مارتينييه، 1990، تر: ريمون رزق الله، دار الحداثة بيروت، لبنان، د.ط، ص26.
- ¹²- ينظر البحث اللغوي عند العرب، مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، أحمد مختار عمر، 1988، عالم الكتب، القاهرة، ط6، ص100.
- ¹³- سر صناعة الإعراب، أبو الفتح ابن جني، 2000، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج1، ص22.
- ¹⁴- ينظر الدرس الصوتي عند علماء القرن الخامس الهجري، سعاد آمنة بوعناني، 2011، رسالة دكتوراه، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، ص277.
- ¹⁵- رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، د.ت، تح محمد حسان الطيان، يحي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، د.ط، ص127.
- ¹⁶- الكتاب، سيبويه، 1980، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، ج4، ص431.
- ¹⁷- اللغة، فندريس، 1950، تر: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، ص83.
- ¹⁸- معاني القرآن، يحي بن زياد الفراء، 1951، تح محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2، ج1، ص319.
- ¹⁹- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، 1985، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، ج1، ص79.
- ²⁰- الصرف العربي بين المقاربات اللغوية القديمة والمقاربات اللسانية الحديثة، محمد شندول، 2015، مركز النشر الجامعي، تونس، د.ط، ص22.
- ²¹- المرجع نفسه، ص25.
- ²²- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، د.ت، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، د.ط، ص111.
- ²³- المنصف شرح التصريف للمازني، أبو الفتح عثمان بن جني، 1945، تح إبراهيم مصطفى، عبد الله أمين، إدارة إحياء التراث القديم، ط1، ج2، ص325.

- ²⁴- الخصائص، ابن جني، ج 2، ص 143.
- ²⁵- فقه اللغة في الكتب العربية، عبده الراجحي، د.ت، مكتبة طريق العلم، د.ط، ص 140.
- ²⁶- المنصف شرح التصريف للمازني، ابن جني، ج 1، ص 4.
- ²⁷- نظريات في اللغة، أنيس فريحة، 1981، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 2، ص 86.
- ²⁸- أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، حسام الهندساوي، 1994، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ط، ص 47.
- ²⁹- ينظر دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، 1992، تعليق محمد شاكر، دار المدني بجدة، مطبعة الخانجي بالقاهرة، ط 3، ص 106.
- ³⁰- المرجع نفسه، ص 71.
- ³¹- المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان، ص 140.
- ³²- الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، 1993، تح: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط 1، ص 64.
- ³³- دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص 49.
- ³⁴- مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، ص 20.
- ³⁵- دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص 52.
- ³⁶- دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمن، 1988، تر: كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة د.ط، ص 54-55.
- ³⁷- دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص 4.
- ³⁸- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، 1988، عالم الكتب، بيروت، ط 2، ص 68.
- ³⁹- التداولية، جورج بول، 2010، ترجمة قصي العتاي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط 1، ص 13.
- ⁴⁰- المرجع نفسه، ص 13.
- ⁴¹- دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص 530.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، د.ت، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، د.ط.
- 2- البحث اللغوي عند العرب، مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، أحمد مختار عمر، 1988، عالم الكتب، القاهرة، ط 6.
- 3- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، 1985، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 5، 1985، ج 1.
- 4- التداولية، جورج بول، 2010، ترجمة قصي العتاي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط 1.
- 5- الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني، د.ت، تح محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، ج 1.

- 6- الدرس الصوتي عند علماء القرن الخامس الهجري، سعاد أمينة بوعناني، 2011، رسالة دكتوراه، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران.
- 7- السلطنة، 2009، المدرسة البنيوية، المنتدى الجامعي للحوار الأكاديمي وأقسامه، <https://www.4algeria.com>، تاريخ الدخول: 26 فيفري 2023.
- 8- الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، 1993، تح: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط1.
- 9- الصرف العربي بين المقاربات اللغوية القديمة والمقاربات اللسانية الحديثة، محمد شندول، 2015، مركز النشر الجامعي، تونس، د.ط.
- 10- الكتاب، سيوييه، 1983، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، ج4.
- 11- اللغة، فندريس، 1950، تر: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط.
- 12- اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، أحمد المتوكل، 1989، منشورات عكاظ، الرباط، د.ط.
- 13- اللسانيات النشأة والتطور، أحمد مومن، 2007، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3.
- 14- المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة، د.ت، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، د.ط.
- 15- المعجم العربي، نماذج تحليلية جديدة، عبد القادر الفاسي الفهري، 1986، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1.
- 16- المنصف شرح التصريف للمازني، أبو الفتح عثمان بن جني، 1945، تح إبراهيم مصطفى، عبد الله أمين، إدارة إحياء التراث القديم، ط1، ج2.
- 17- أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، حسام الهنساوي، 1994، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ط.
- 18- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، 1992، دار المدني بجدة، مطبعة الخانجي بالقاهرة، ط3.
- 19- دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمن، 1988، تر: كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، د.ط.
- 20- رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، د.ت، تح محمد حسان الطيان، يحي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، د.ط.
- 21- سر صناعة الإعراب، أبو الفتح ابن جني، 2000، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1.
- 22- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، 1988، عالم الكتب، بيروت، ط2.
- 23- فقه اللغة في الكتب العربية، عبده الراجحي، د.ت، مكتبة طريق العلم، د.ط.
- 24- مبادئ اللسانيات، أحمد محمد قدور، 2008، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3.
- 25- مبادئ ألسنية عامة، أندريه مارتينييه، 1990، تر: زيمون رزق الله، دار الحداثة بيروت، لبنان، د.ط.
- 26- مبادئ في اللسانيات، خولة طاب إبراهيمي، 2006، دار القصة للنشر، الجزائر، ط2.
- 27- معاني القرآن، يحي بن زياد الفراء، 1951، تح محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2، ج1.
- 28- نظريات في اللغة، أنيس فريجة، 1981، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2.